﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران: 179]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإمـــــلاء والاستـــدراج، وعـلاقـتـهـمـا بـالـتّـمـيـيـز بين الخبيث والطّيّب

لَمَّا بيّنَ اللهُ ﷻ لعبادِهِ في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ اللهَ يُملي للكافرين، ويؤجِّلُ عقوبتَهم، فليس ذلك لخيرٍ، يُريده لأنفُسِهم، وإنَّما هو اسْتدراجٌ لهم؛ ليزدادوا ضَلالًا وغَيًّا، حتَّى إذا أخذَهم؛ لم يُفْلِتهم جاءَ بيانُ اللهِ هنا في هذه الآيةِ الكريمة؛ ليُظهِرَ حكمتَه الجليلةَ في تَمييزِ الخَبيثِ من الطَّيِّبِ، والمؤمنِ من المنافقِ والكافر، وهذا الأمرُ في غَيْبٍ لا يعلمُه إلّا اللهُ، وبهذا الفرْزِ والتَّمحيص، ينقسمُ النَّاسُ قسمَيْن: مُطيعين وعاصين، ومُسلمينَ وكافرين، ولكلٍّ منهُما وعدٌ بالخير، أوْ وَعيدٌ بالشَّرِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَذَرَ﴾: يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لِقلَّة اعتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، والوَذَرَةُ: قِطعةُ اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعْتدادِ بها[1]، ويُقالُ: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ، وهو يذَرُهُ؛ أي: يَدَعُهُ، ولا يُقالُ منه: وَذَرَهُ ولا واذِرٌ، ولكن تَرَكَهُ، وهو تاركٌ[2]، "قال الخليل: أماتت العربِ فِعلَ (يَذَرُ) في الماضي ومصدره، فلا يكادون يقولون: وَذَرْتُه، هذا قول الخليل، وقد استعمل بعض أهل اليمن (وَذَرَ)، والصّحيح ما قاله الخليل،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 162 - 163.
(2) الرَّازي، المختار: (وَذَرَ).

لأنّهم قد استغنواْ عن (وَذَرَ) بترك، وقد استعملواْ المستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: 186]"[1].

2) ﴿يَمِيزَ﴾: المَيْزُ والتَّمْييزُ: الفَصْلُ بينَ المُتَشابهات، يُقالُ: مازَهُ يَميزُهُ مَيْزًا، ومَيَّزَهُ تمييزًا، قالَ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 37]، والتَّمييزُ يُقالُ تارةً للفَصْل، وتارَةً للقوَّة الَّتي في الدِّفاع، وبها تُستنبطُ المعاني، ومنه يُقالُ: فلانٌ لا تمييزَ له، ويُقالُ: انْمازَ، وامْتازَ، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: 59]، وتَميَّزَ مُطاوِعُ مازَ، أيْ: انْفصلَ، وانْقطعَ، قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8][2]، وَانْمَازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، قَالَ يَصِفُ حَيَّةً:

قَرَى السُّمَّ حَتَّى انْمَازَ فَرْوَةُ رَأْسِهِ *** عَنِ الْعَظْمِ صِلٌّ فَاتِكُ اللَّسْعِ مَارِدُ[3].

3) ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: الخُبثُ والخَبيثُ: ما يُكرَهُ رَداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كانَ أوْ مَعقولًا، وأصلُه: الرَّديءُ الدَّخْلة، الجاري مَجْرى خَبَثِ الحَديد، وذلكَ يتناولُ الباطلَ في الاعْتقاد، والكذِبَ في المَقال، والقَبيحَ في الأفْعال، قال ﷻ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157][4]، وهذا هو المرادُ في الآية الكريمة.

4) ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطيبُ طَيبًا، فهو طَيِّبٌ، وأصلُ الطَّـيِّب: ما تَسْتلذُّه الحَواسُّ، وما تَسْتلذُّه النَّفْسُ، والطَّـيِّبُ مِنَ الإنسان: مَنْ تعرَّى من نجاسةِ الجَهْلِ والفِسْقِ وقبائحِ الأعمال، وتحلَّى بالعلمِ والإيمانِ ومَحاسنِ الأعمال، وإيَّاهُم قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: 32][5]، والمعنى الأخيرُ هو الَّذي تهدف إليه الآية الكريمة.

5) ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾: يُقال: أطلَعَهُ على سِرِّه، واسْتطْلَعَ رأيَه: اطَّلَعَ على باطِن أَمرِه، وطالَعَهُ بِكُتُبه، وطالعَ الشَّيءَ، أي: اطَّلَعَ عليه، والطُّلْعَةُ: الرُّؤْيَة[6]، "قال ابن السّكّيت: طلعت على القوم، إذا أتيتهم، وقد طلعت عنهم، إذا غبت عنهم، وطلعت الجبل بالكسر، أي علوته،

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 781.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَزَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 272.
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 527.
(6) الفيروزآبادي، القاموس: (طَلَعَ).

وفي الحديث: «ولا يَهيدَنكُمُ السَّاطِعُ المُصْعِدُ»[1]، - يعني الفجر الكاذب - ، واطّلعت على باطن أمره، وهو افتعلت، وطالعه بكتبه، وطالعت الشّيء، أي اطّلعت عليه"[2].

6) ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مَصْدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها؛ إذا اسْتترتْ عَنِ العَيْن، يُقالُ: غابَ عنِّي كذا، قالَ تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ [النّمل: 20] واسْتُعمِل في كُلِّ غائبٍ عنِ الحاسَّة، وعمّا يَغيبُ عن علم الإنسان، بمعنى: الغائب، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتبارِه بالنَّاسِ، فإنَّه تعالى لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73]، أيْ: ما يغيبُ عنكم، وما تَشْهدونَه[3].

7) ﴿يَجْتَبِى﴾: يقالُ: جَبَيْتُ الماءَ في الحَوْض: جَمَعْتُه، والحَوْضُ الجامع له: جابيَة، وجَمعُها: جَوابٍ. والاجْتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصْطِفاء، قالَ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]. واجْتباءُ اللّهِ العَبْدَ: تَخْصيصُه إيّاه بِفَيْضٍ إلَهيٍّ، يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعَم بلا سَعْيٍ مِنَ العَبْد، وذلكَ للأنبياءِ، وبعضِ مَنْ يُقارِبُهم مِنَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداء، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، وقالَ سُبحانه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان الامتحان بتمييز معادن النّاس، والالتزام بالإيمان لنيل الأجر العظيم

يؤكّد سياق الآية، أنّ اللّه تعالى ما كان له أن يترك المؤمنين، من غير امتحان وتمحيص، وذلك من أجل أن يظهر الطّيّب من الخبيث، والمؤمن من المنافق، فكان امتحان المؤمنين يوم أحد، فرصة ليتجلّى المؤمنون على حقيقتهم، ويستبين حال المنافقين ظاهرًا جليًّا، فيما أبدوه من مخالفة للرّسول الأكرم، ونكال عن الجهاد في سبيل اللّه، وخيانة للمؤمنين في أصعب الظّروف، واللّه لا يُطْلِعُ عباده على الغيب المخبوء، ولا يكلّم جميع العباد كفاحًا، ولكنّه يجتبي من عباده رسلًا،

(1) أبو داود، الحديث رقم: (2348).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (طَلَعَ).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 616.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 187.

يكلّفهم بالبلاغ عنه، فيبشّرون من آمن، وينذرون من كفر، ويكون الامتحان بالجهاد بالنّفس والمال، لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، من أهمّ وسائل التّمحيص، وفي ذلك تجسيد لأمر الله، في التّمييز بين الخبيث والطّيّب، ومن أجل ذلك دعا النّاس إلى الإيمان بالله ورسله، وعلى رأسهم محمّد الخاتم ﷺ، مؤكّدا أنّ من آمن به واتّقى، فقد حاز الأجر العظيم، وهو بإيمانه به، كأنّه آمن بجميع الأنبياء والمرسلين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في حقِّ الفريقين:

التَّلويحُ بالوعدِ والوعيدِ سنَّةُ القرآنِ في التَّمييزِ:

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لوعدِ المؤمنين، ووعيدِ المنافقين بالعقوبةِ الَّتي هي الفَضيحةُ والخِزْيُ إثْرَ بيانِ عقوبتِهم الأُخرويَّة[1]، وهذه سنَّةٌ قرآنيَّةٌ في بيان أهلِ الحقِّ وأهل الباطلِ، ليتميَّزَ كلُّ فريقٍ بما هو عليه من الصِّفات.

معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

اللّامُ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ﴾؛ لتأكيدِ النَّفي في قولِه: ﴿مَا كَانَ﴾[2]، ناصبةٌ للفعلِ بنفسِها، ويُمكنُ أن تكونَ (اللّامُ) مُتعلِّقةً بالخبرِ المقَدَّرِ لـ ﴿كَانَ﴾، وانْتصابُ الفعلِ بعدَها بأنْ المقَدَّرة، أيْ: ما كانَ اللهُ مُريدًا أو مُتصدِّيًا؛ لأن يَذَرَ المؤمنين[3].

سرُّ العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

المؤمنونَ كلمةٌ تُطلَقُ فيُرادُ منها عمومُ المجتمعِ

وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْخُلَّصُ مِنَ النِّفَاقِ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَغَيَّرَ الْأُسْلُوبَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَلَمْ يَقُلْ: لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/607.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/483.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 1/608.

بِضَمِيرِ الْخِطَابِ أَكْثَرُ مِنَ الْمُرَادِ بِلَفْظِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، فيكون المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مُخاطَبٌ به المسلمونَ كُلُّهم، باعْتبار مَنْ فيهم مِنَ المنافقين[1].

معنى الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

حَرْفا الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيِّ، وهو التَّمكُّنُ مِنْ معنَى مَجرورِها، ويَتبيَّنُ الوصفُ المُبْهَمُ في الصِّلَةِ بما وردَ بعدَ ﴿حَتَّىٰ﴾ من قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فَيُعْلَمُ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ.

براعةُ الالتفات في إفادةِ الإيجاز:

الخطابُ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اخْتلاطِ المؤمنينَ الخُلَّصِ والمنافقين[2]، كأنّه قيل: ما كانَ اللّٰه ليذرَ المخلِصينَ منكم على الحال الَّتي أنتُم عليها من اخْتلاطِ بعضِكم ببعض، وأنَّه لا يعرفُ مُخلِصَكم مِنْ منافقِكم، لاتّفاقكم على التَّصديقِ جميعًا، حتّى يميّزَهُم منكم بالوَحْيِ إلى نبيِّه ﷺ وإخبارِه بأحوالِكم، وهذا هو المُعَوَّلُ عليه عندَ المُحقِّقينَ من أهلِ التَّفسير، وهو الَّذي يُشيرُ إليه الالتفاتُ ضِمنَ تَلْوين الخطاب، ما بَيْن صَدْرِ الآية الكريمة، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لكونِ الخطابِ صريحًا في كَوْنِ المرادِ بما هم عليه، ما ذُكر مِنَ القَدْرِ المشْتَرَكِ بينَ الفريقَيْن، من حيثُ هو مُشترَكٌ بينَهما، وعليه يدورُ أمرُ الاخْتلاطِ المُحوِجِ إلى الإفراز[3].

الاختلاطُ بينَ المؤمنين والمنافقين مؤقَّتٌ إلى حينٍ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ قراءتان، الأولى: بفَتح ياءِ المضارَعةِ، وكسرِ الميم، وياءٍ تَحْتيّةٍ بعدها ساكنةٍ، من: مازَ يَميزُ، وهي قراءة الجمهور، والثَّانية: بضمِّ ياء المضارَعةِ، وفَتْحِ الميم،

المنافقون في حيِّزٍ مختلفٍ عن المؤمنين، متفرِّقون مُشتَّتون

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/178.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/483.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/608.

وياءٍ مُشَدَّدَةٍ مَكْسورةٍ، ﴿يُمَيِّزَ﴾ مِنْ: مَيَّزَ، مُضاعَفُ مازَ، وهي قراءة حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف[1]، يُقالُ: مازَ الشَّيْءَ، يَميزُ مَيْزًا، ومَيَّزَه يُميِّزه تمييزًا؛ إذا فرَّقه، فانْمازَ، وانْمازَ هو بنفسِه[2].

والفرق بين القراءتين؛ أنَّ قراءة الجمهورِ تدلُّ على تفريقِ الخبيثِ وهم المنافقون عن الطَّيِّب وهم المؤمنون، أي: جعل المنافقين في حيِّزٍ غير حيِّز المؤمنين، بَيْنَما تدلُّ قراءةُ البقيَّة على تفريقِ المنافقين في أنفسِهم، أي: جعل المنافقين متفرِّقين مُشتَّتين، والقراءتان بليغتان في بيانِ المعنى، والمعنى فيهما مرادٌ.

فائدةُ تسميةِ المنافقين بالخبيثِ والمؤمنين بالطَّيِّبِ:

الخُبثُ علَّةُ النِّفاقِ والطِّيبُ أصلُ الإيمانِ

جاء قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ غايةً لما أفادَه النَّفيُ في صدرِ الآيةِ الكريمة، كأنَّه قيلَ: ما يتركُهمُ اللهُ تعالَى على ذلكَ الاختلاط، بلْ يُقدِّرُ الأمورَ ويُرتِّب الأسبابَ حتَّى يَعزِل المنافِقَ منَ المؤمن، والتَّعبيرُ عن المؤمنين بالطَّيِّبِ والمنافقين بالخبيثِ تسجيلٌ على كلٍّ منهما بما يَليقُ به، وإشْعارٌ بعِلَّةِ الحُكْم[3].

نكتةُ إفرادِ الخبيثِ والطَّيِّبِ:

وصف الخبثِ والطِّيب هما مدارُ التَّمييزِ بين الفريقين

جاء إفرادُ الخبيثِ والطَّيِّبِ مع تعدُّدِها - لأنَّه أُريدَ بكلٍّ واحدٍ منهما وتَكَثُّره، لا سيَّما بعدَ ذكرِ ما أُريدَ بأحدِهما، وهمُ المؤمنون، الَّذي وردَ بصيغةِ الجمع - ؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ إفرازِ أحدِ الفريقَيْن من الآخَرِ هو اتِّصافُهما بوصفِهما، لا خصوصيَّةَ ذاتِهما، وتعدُّد آحادِهما[4].

(1) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 220، وابن الجزري، النشر: 2/244.
(2) ابن خالويه، الحُجَّة، ص: 118، ومكيّ، الكشف: 1/369.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.

سرُّ تعليق الميَز بالخبيث لا الطَّيِّب:

الخبيثُ تعلُّقٌ مؤقَّتٌ لا بدَّ من زوالِه، والطَّيِّب ثابتٌ راسخٌ

لسائلٍ أن يسألَ عن العلَّةِ في تعليقِ الميزِ بالخبيثِ في قولِه: ﴿يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ العلَّةَ تَنتظِمُ في أمرَيْن:

الأوَّلُ: هو أنَّ الميزَ الواقعَ بين الفريقَيْن إنَّما هو بالتَّصرُّفِ في المنافقين، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى؛ مغايرةً للأُولَى مع بقاءِ المؤمنينَ على ما كانوا عليه من أصلِ الإيمان، وإنْ ظهرَ مزيدُ إخلاصِهم لا بالتَّصرُّفِ فيهم، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى مع بقاءِ المنافقينَ على ما هم عليه من الاسْتِتار.

الثَّاني: لأنَّ فيه مزيدَ تأكيدٍ للوعيد، كما أُشيرَ إليه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220][1].

براعةُ التَّجريدِ في خطابِ المؤمنين:

تشريفُ المؤمنين في معرفةِ حدودِهم في معرفةِ الغَيبِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميزِ الموعودِ على طريقِ تجريدِ الخطابِ للمُخلِصين تشريفًا لهم[2]، يعني: أرادَ أن يُميِّزَ لكمُ الخبيثَ، فتعرِفوا أعداءَكم، ولم يكنْ من شأنِ اللهِ إطلاعُكم على الغيب؛ فلذلكَ جعلَ أسبابًا مِنْ شأنِها أنْ تَستفزَّ أعداءَكم، فيُظهِروا لكمُ العداوةَ، فتَطَّلعوا عليهم، وإنَّما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنّه تعالى جعلَ نظامَ هذا العالم مُؤسَّسًا على اسْتفادةِ المُسَبَّباتِ من أسبابِها، والنتائجِ من مُقدِّماتها[3].

فائدةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ على التَّوالي:

تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنين والطُّمأنينة في نفوسِهم

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ في الموضِعَيْن ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لتربيةِ المَهابَة، فالمعنَى: ما كان اللهُ ليترُكَ المخلِصينَ على الاخْتلاطِ بالمنافقين،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/179.

بلْ يُرتِّبُ المبادئ حتَّى يُخرِجَ المنافقين مِنْ بينهم، وما يَفعلُ ذلكَ بإطلاعِكم على ما في قلوبِهم مِنَ الكُفرِ والنِّفاق، ولكنَّه تعالَى يوحي إلى رسولِه ﷺ، فيُخبِرُه بذلكَ، وبما ظَهَرَ منهم مِنَ الأقوالِ والأفعال، فَيفضَحُهم على رؤوسِ الأَشْهاد، ويُخلِّصَنَّكَ مِنْ خِسَّةِ الشُّركاء، وسوءِ جِوارِهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الاجتباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ﴾:

التَّعرُّضُ للاجْتباءِ في قولِه: ﴿يَجۡتَبِي﴾ لِلإيذان بأنَّ الوقوفَ على أمثالِ تلكَ الأسرارِ الغَيبيَّة لا يَتأتَّى إلّا ممَّن رشَّحَهُ اللهُ تعالَى لِمَنْصِبٍ جليلٍ، تَقاصرَتْ عنه هِمَمُ الأُمَم، واصْطفاه على الجماهيرِ لإرشادِهم، وهمُ الرُّسُل ﷺ، وفيه كذلكَ بيانٌ عَنْ مزيدِ مِزْيتِهم وفَضْلِ معرفتِهم على الخَلْق، إثْرَ بيانِ قُصورِ رُتبتِهم عَنِ الوقوفِ على خَفايا السَّرائر، وفيه كذلكَ تصْريحٌ في أنَّ المرادَ إظهارُ تلكَ السَّرائرِ بطريقِ الوَحْي لا بطريقِ التَّكليف، بما يؤدِّي إلى خروجِ أَسْرارِهم عن رُتبةِ الخَفاء، وتعميمُ الاجْتباءِ لسائرِ الرُّسل ﷺ في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ شأنَه ﷺ في هذا البابِ أمرٌ مَتين، له أَصْلٌ أصيل جارٍ على سُنَّةِ اللهِ تعالى المسْلوكةِ فيما بَيْنَ الرُّسُلِ الخالية[2] ﷺ.

اجتباءُ الرُّسُلِ دليلٌ بُطلانِ ما يزعمُه المبطلون أذعياءُ معرفةِ الغيبِ

تعدُّدُ احتمالِ المقصودِ بالخطابِ في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ إمّا أنْ يكونَ خطابًا للمؤمنين، أوْ خِطابًا للمنافقين، فإنْ كانَ الأوَّلَ؛ فالمقصودُ منه الإيمانُ الخاصُّ، وهو التَّصديقُ بأنَّهم لا يَنطِقون عَنِ الهوَى، وبأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ، فعليهِمُ الطَّاعةُ في الحربِ وغيرِها، ويُمكنُ أنْ يُرادَ بالأمرِ الدَّوامُ على الإيمان؛ لأنَّ الحالةَ المتَحدَّثَ عنها، قدْ يُتوَقَّعُ منها تَزلزُلُ إيمانِ الضُّعفاء، ورَواجُ شُبَهِ المنافقين.

أمرُ المؤمنين بالإيمانِ على سبيلِ الاستزادة، والمنافقين للإيمانِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/610.

وإنْ كانَ الثَّاني؛ فيكون هذا الخطاب مَبْنيًّا على أنَّ المرادَ بالخِطابَيْن السَّابقيْن في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، وقولِه: ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، هُمُ المنافقون، فيكونُ الأمرُ بالإيمانِ هنا ظاهرًا[1]، والأوفق بالسِّياقِ سباقًا ولحاقًا الاحتمالُ الأوَّل.

حـضُّ المؤمنين وترغيبُهم بعد أمرِهم بالإيمان أوثقُ استجابةً

قوَّةُ تفريعِ شرطِ الإيمانِ على الأمرِ بالإيمانِ:

جاء قولُه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تفريعًا مُصَدَّرًا بالشَّرْط؛ لإحقاقِ الحقِّ وإبْطالِ الباطِل، فإنَّ مَنْ آمن، وصَدَّق حقَّ التَّصْديق، وداومَ على إيمانِه، واتَّقَى مراعاةَ حُقوقِ اللهِ، وإنزالَ رُسُلِ اللهِ منازِلَهم، وأنَّهمُ المتَّبعون وَحْيَ الله؛ فله أجرٌ عظيمٌ مِنَ الله، ومَنْ خلَع عباءَةَ الكفر، ورِبْقتَه من قلبِه، وآمنَ، وصدَّق، وداومَ على الإيمان؛ فإنَّ جزاءَه كذلكَ الأجرُ العظيمُ مِنَ الله، فهذا الشَّرطُ بتمامِه يُعدُّ دعوةً لِكلا الفريقَيْن: للأوَّلِ بضرورةِ الثَّبات، وللثَّاني بوجوبِ العَوْدِ للإيمان، ثمَّ الثَّبات.

فائدةُ تقديمِ شِبه الجملةِ القصرُ:

وتَقدُّمُ شِبْهِ الجُملة في ﴿فَلَكُمۡ﴾ يُعدُّ حَصْرًا وقَصْرًا وتأكيدًا لاسْتحقاقِ الجزاءِ الحَسَنِ بعدَ تَحقُّقِ سَبَبِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترُكُ):

سَبَقَ بيانُ معنَى (يَذَر) في فِقرةِ: شرح المفردات، من تفسير هذه الآية، ونضيف إلى ما ورد هناك، ما يلي: "قال ابن كيسان: وإنّما جُعل من باب فَعَلَ يَفْعَل، بالفتح فيهما، وليس فيه حلقيّ لمضارعته (ودع يدع) من وجهين: أحدهما: تَنَكُّبُ استعمال ماضيهما، استغناء عنه بترك، الثّاني: أن لفظهما يؤدّي معنى التّرك، وكلّ شيءٍ أشبه

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/180.

شيئاً من وجه أو وجهين، دخل معه في بعض أحكامه، فلذلك حُمل عليه بالحذف، وحذف واو مستقبله، وأصله يَوْذَرُ"[1]. وأمّا (يَدَعُ)؛ فماضيه: وَدَعَ، يُقالُ: ودَعْتُ كذا أَدَعُهُ وَدْعًا، نحوُ: تركتُه وادِعًا، ولا يُستعمَلُ ماضيه، فهو كالفعل (يَذَرُ) كما سبَق، ولا يُستعمَلُ اسْمُ فاعِله كذلك، وإنَّما يُقالُ: يَدَعُ، وَدَعَ[2] والتَّوَدُّعُ: تَرْكُ النَّفْسِ عنِ المجاهَدة، وفلانٌ مُتَّدِعٌ ومُتَوَدِّعٌ، وفي دَعَةٍ: إذا كانَ في خَفْضِ عَيْش، وأَصْلُه مِنَ التَّرْك، وعُبِّرَ عَنِ التَّرْكِ به في قولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضُّحى: 3]، كقولِكَ: ودَّعْتُ فلانًا، نحوُ: خَلَّيْتُه، ومنه قيل: اسْتودَعْتُكَ غيرَ موَدَّع[3]. وتَرْكُ الشَّيْءِ: رَفْضُه قَصْدًا واخْتيارًا، أوْ قَهْرًا واضْطرارًا، فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿*وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، ومنه تَرِكَةُ فُلانٍ لما يَخْلُفُهُ بعدَ موتِه، وقد يُقالُ في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مَجْرَى جعلتُه كذا، نحوُ: تركْنا فلانًا وحيدًا[4]، والتَّـرْكُ عندَ العَرَب: تَخليفُ الشَّيْءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانْصرافُ عنه[5]. ومِنْ خلالِ بيانِ المفرداتِ الثَّلاث: (يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترك)، نجدُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُستعمَلُ في نَظيرتِها، ولكنَّ الفِعْلَ (يَذَرُ) حازَ معنًى لم يَحُـزْهُ نَظيراه، وهو قِلَّةُ الاعْتدادِ بالشَّيء، فإذا قلْنا: فلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ؛ فإنَّنا نَعْني: يقذِفُه لِقلّةِ الاعْتدادِ به، لكنْ ما علاقةُ هذا المعنَى بسياق النَّصِّ القُرآنيِّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟الجوابُ: هو أنَّ بيانَ اللهِ تعالَى اسْتَخدمَ هذا الفعلَ (يَذَرَ) هنا؛ ليُظْهرَ لعبادِه أنَّه ﷻ لا يَذَرُ اخْتلاطَ المنافقينَ بالمؤمنينَ، يَمُـرُّ كأنْ لم يكنْ، وكأنَّ المنافقينَ هُم مع اختلاطِهم بالمؤمنين، في أعمالِ الإسلامِ الظَّاهرةِ، مِنْ صَلاةٍ وصيام وحَجٍّ وجِهاد، هم كذلكَ معهم، فيما وقَرَ في قلوبِهم مِنَ الإيمانِ الصَّادقِ المخلِصِ للهِ، كلَّا؛ لا يمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ كذلك، فلا بُدَّ مِنْ فَرْزِهم وتَخْليتِهم عن صفِّ المؤمنينَ الصَّادقينَ المخلصين، وهم في واقعِ حالِهم من حقيقةِ الكُفْر – الَّذي وَقَرَ في قُلوبهم، والَّذي لا يعلمُه إلّا اللهُ – هم أهونُ عندَ اللهِ وأصْغَرُ مِنْ أن يوصَفوا بالإيمان، فَلا اعْتدادَ بهم، ولا بِظاهرِ ما هُم عليه مِنْ مَظاهرِ الإسْلام، وقُلوبُهم خاويةٌ على عُروشها، ومُعطَّلةٌ عن حقيقةِ الإيمانِ باللهِ، كما

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ودَعَ).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 861.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 166.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.

قالَ ﷻ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجُرات: 14].

(يَميز) و(يَفْصِل):

سَبَقَ بيانُ الفعلِ ﴿يَميزَ﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا الفَصْلُ: فهو إبانةُ أحدِ الشَّيئَيْن مِنَ الآخَر، حتَّى يكونَ بينَهما فُرْجةٌ؛ ومنه قيلَ: المَفاصِلُ، والواحدُ مَفصِلٌ، وفَصَلْتُ الشَّاةَ: قَطَعتُ مفاصِلَها، وفَصَلَ القومُ عن مكاني كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: 94]، ويُستعمَلُ كذلكَ في الأفعالِ والأقوالِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدُّخان: 40]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصّافّات: 21]، أي: اليومَ يُبيّنُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، ويُفْصَلُ بين النَّاسِ بالحُكم. والفِصالُ: التَّفريقُ بين الصَّبيِّ والرَّضاعِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ [البقرة: 233]. والمُفَصَّلُ مِنَ القُرآن: السَّبعُ الأخيرُ، وذلكَ للفَصْلِ بين القَصَص بالسُّوَرِ القِصار[1].

وممَّا تقدَّمَ تفصيلُه بَيْن الفعلَيْن (يَميزَ) و(يَفصِلَ) يَظهرُ لنا جَليًّا: أنَّ الفعلَ (يَميزَ) أوسعُ في إطلاقاتِه، وأشملُ في مَدْلولاتِه، مع فَرْقٍ واضحٍ كذلكَ: وهو أنَّه أَدَقُّ في معناهُ مِنَ الفعلِ (يفصلَ)، فهو فَصْلٌ بين المُتشابِهات. وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ لَزِمَه الفعلُ (يَميزَ) لِشُمولِه ودقَّتِه، ممَّا لم يتوفَّرْ أوْ يَتوافَرْ في الفعلِ (يَفْصِل) بما يتعلّقُ بفائدتِه المُتوخَّاةِ في سياقِ الجُملةِ القرآنيَّة، فأولئكَ المنافقونَ قَدِ اشْتبَه حالُهم ومَقالُهم عندَ كثيرٍ مِنَ المؤمنين، ولكنَّ الأزماتِ تُظهرُ أهلَ النِّفاقِ مِنْ أهلِ الصِّدقِ والإخلاصِ في الإيمان، فقد انْقَشَعَتِ الحُجُبُ، وانكشفَ الغِطاءُ، وزالتِ المُتشابهاتُ في حقيقةِ نفاقِ أولئكَ الَّذينَ أظْهروا الإيمانَ تَجمُّلًا، وأَبْطنوا الكُفرَ خِداعًا وزورًا، وخاصَّةً في مِحْنةِ القِتالِ في عديدٍ مِنَ الغزوات، فلا بُدَّ مِنْ وضْعِ النِّقاطِ على الحُروف، وتمييزِ المؤمنينَ المُخلصين، وإعلاءِ مَنْزلتِهم، وبيانِ المنافقين وفَضْحِهم، وإهدارِ كرامتِهم.

(يُطْلِعُ) و(يُعرِّفُ):

سبق بيانُ الفعل (يُطلعُ) في فِقرة: شرح المفردات، والمعْرِفَةُ والعِرْفانُ: إدراكُ الشَّيءِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 138.

بتفكُّرٍ وتَدَبُّرٍ لأَثَرِه، وهو أخصُّ مِنَ العلم، ويُضادُّه الإنْكار، ويُقالُ: فلانٌ يعرِفُ اللّه، ولا يُقالُ: يَعلمُ اللّه، مُتعدِّيًا إلى مفعولٍ واحد، لَمَّا كانت معرفةُ البَشَرِ للّه، هي بتدبُّر آثارِه، دونَ إدراكِ ذاتِه، ويُقالُ: اللّه يعلمُ كذا، ولا يُقالُ: اللّهُ يعرِفُ كذا؛ لَمَّا كانتِ المعرِفةُ تُستَعملُ في العلمِ القاصِرِ، المُتوَصَّلِ به بتفكُّر[1]، وممّا سبقَ معرفتُه يتبيَّنُ لنا أنَّ إيرادَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾، أوقعُ في السِّياقِ من الفعلِ (ليُعرِّفكم)، فإنَّ اللّه تعالى يعلمُ بواطنَ الأمورِ وظاهرَها، والغُيوبُ بواطنُ بالنِّسبَةِ للعباد، لا يعلمُها إلّا هو ﷻ، ثمَّ إنَّ المعرفةَ ـــ كما سلفَ ـــ تُستعمَلُ في العلمِ القاصرِ، المُتوصَّلِ إليه بتفكُّر، واللّهُ منزَّهٌ عن ذلكَ، سواءٌ أكانَ ذلكَ بإسنادِ المعرفة إليه سُبحانه، كصفةٍ، أَمْ بإسنادِها إليه في تعريفِه عبادَه الغيبَ بها.

(يَجْتبي) و(يَصْطفي) و(يَخْتارُ):

سبقَ بيانُ معنى ﴿يَجْتَبِي﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا (يخْتارُ) و(يَصْطفي)؛ فإنَّه قدْ كَثُرَ اسْتعمالُ أحدِهما مكانَ الآخَر، فاخْتيارُك الشَّيءَ: أَخْذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقة، أوْ خيرَهُ عندَك، والاصْطفاءُ أخذُ ما يَصْفو منه، واسْتُعمِلَ الاصْطفاءُ كذلكَ فيما لا صَفْوَ له على الحقيقة[2]، وبالنَّظرِ إلى معنَى الاجْتباءِ نجدُ أنَّه يقومُ على الجَمْعِ والتَّخصيص، فيَجمَعُ اللّهُ للعبدِ صفاتٍ يتحقَّق بها، تُؤهِّلُه للاجْتباء، وكذلكَ يُخصِّصُه بفُيوضاتٍ إلهيَّةٍ يمنحُها له، يتحصَّلُ له منها أنواعٌ مِنَ النِّعم بلا سَعْيٍ منه، وهذا عَيْنُ الاجْتباءِ الرَّبَّانـيِّ، وهذه المعاني ليستْ بعَيْنها متحقِّقةً في كُلٍّ مِنَ الاصْطفاءِ والاخْتيار، كما تبيَّنَ لنا، وإنْ كانَ في الظَّاهر ما يوهِمُ بأنَّها جميعَها بنَفْسِ القَدْرِ مِنَ الاشْتراكِ في المعنَى.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 560 - 561.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»